نحو مطلع شمس النبوة:
لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ[٨]

فضيلة الشيخ: معوّض عوض إبراهيم[٩]

في مثل هذه الأيام من كل عام تهفو قلوب المؤمنين إلى بيت الله الحرام، وتهوي أفئدتهم إلى زمزم والمقام، ويرنون بأبصارهم وبصائرهم نحو مَشرق نور التوحيد ومَطلع شمس النبوة في مكة المكرمة. ويمضي السعداء المحظوظون في سباق طيب وتنافس محبب، إلى أخذ الأهبة وإعداد العدة لتلك الرحلة الروحية التي لا يكمل إيمان القادرين إلا بها، ومن حق هذا البلد الحرام أن يطول إليه الشوق، وأن يتصل به الوجد، وأن تُبتغى إليه الوسيلة، لنقضي لأرواحنا بعض الحظوة بالحياة بين الرحاب التي استقبلت محمدًا ﷺ يتيمًا فآواه مولاه، وأميًّا فعلمه واجتباه وأرسله رحمة للعالمين. وصدق الله العظيم:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

(الضحى: ٦-٨)

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)

ومن حق هذا البلد الآمن أن يطوي المؤمنون جوانحهم على محبَّته وإعزازه، بقدر إعزازهم لأنفسهم التي جعلها الله ـ بالإسلام الذي ذاع منها، وبالنبي الذي استعلن بأمر الله فيها ـ خير

(٨) نشر بمجلة الأزهر، مجلد السابع والعشرين، عدد، جـ ١٠، شوال ١٣٧٥هـ.

(٩) مُعَوَّض عَوَض إبراهيم (١٣٣٠ - ١٤٣٩هـ = ١٩١٢ - ٢٠١٨م): عَلَمٌ جليل من علماء الأزهر الشريف، ولد عام (١٣٣٠هـ = ١٩١٢م)، بقرية كفر الترعة الجديد (مركز شربين، محافظة الدقهلية). أتم حفظ القرآن الكريم بكُتَّاب القرية، والتحق بالأزهر الشريف عام ١٩٢٦م، وحصل على الابتدائية عام ١٩٣٠م، وعلى الكفاءة عام ١٩٣٣م، وحصل على الثانوية من معهد طنطا عام ١٩٣٥م، والتحق بكلية أصول الدين بالقاهرة، وتخرج فيها عام ١٩٣٩م. وأكمل سنتين في تخصص الدعوة وحصل على درجة التخصص (الماجستير) عام ١٩٤١م. وحصل على إجازة التدريس، له قصائد شعرية منشورة وديوان شعر مطبوع، ويُذكر أن الأستاذ عباس محمود العقاد أول من أُعجب به، وتنبَّه لموهبته الأدبية، فنشر له قصيدة في مجلة السياسة الأسبوعية عام ١٩٣٩م. له مؤلفات عديدة، من أبرزها: «الإسلام والأسرة السعيدة»، «مع الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه»، و«الأولاد ودائع الله عندنا»، و«رمضان شهر التقوى والقرآن»، وله عدة مقالات نشرت في مجلة الأزهر وفي كثير من المجلات الإسلامية، وقد تبرع -رحمه الله- بمكتبته الضخمة للأزهر الشريف. توفي -رحمه الله- في يوم الأربعاء السادس من شوال ١٤٣٩هـ، الموافق ٢٠/ ٦/٢٠١٨م. (مصدر الترجمة: بوابة الأهرام الإلكترونية: ٢٠-٦-٢٠١٨م، ١-١١-٢٠١٦م). (المجلة).

أمة أخرجت للناس... بهذه المشاعر الهائمة يحيا المؤمنون في هذه الأيام. وكذلك كانوا منذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها القرآن الكريم دعاء جدّ العرب إبراهيم:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٥-٣٧)

ومنذ بلغهم نداء الله لخليله:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (الحَجّ: ٢٧-٢٩)

ومن ذا الذي يسمع هذا الرجاء وذلك النداء ثم لا يهزه الحنين إلى أطهر البقاع، ولا يغالبه الشوق إلى أشرف المنازل؟ ومن ذا الذي تواتيه الحظوظ وتسعفه فرص الحَجّ ثم لا يبادر بأداء هذه الشعيرة التي أوجبها الحق سبحانه بقوله:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(آل عمران: ٩٧)

ولا يسارع إلى رؤية هذه المشاهد التي تروي تاريخ الإسلام في أطواره جميعًا، سريًّا وجهريًّا، مكيًّا ومدنيًّا، وتملأ سمع الأيام والليالي بما واجه رسول الله في إخراجه الناس من الظلمات إلى النور، من رضًا وخصامٍ، وحربٍ وسلامٍ، كان صلوات الله عليه في جميعها الأسوة الحسنة، والرحمة العامة، والتفسير الصحيح لقول الله -تعالى- فيه:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

ألا ما أحوج المسلمين في شرق الدنيا وغربها - وقد تفرقت بهم السُّبُل وعميت عليهم الأنباء - إلى دراسة فريضة الحج في زمانها ومكانها لتذكّرهم بما للآباء في ذممهم من حقوق ما زالوا في الطريق إلى أدائها؛ وليشهدوا - كما قال الله - منافع لهم، في رأس قائمتها نعمة

التعارف والأخوة التي يفيضها ذلك المؤتمر الإسلامي العام، ففيه يتواصون بالحقِّ، ويتعاونون على البرِّ والتَّقوى ويعرضون مشاكلهم، ويتدارسون مسائلهم، ويضعون الخطط الرشيدة الهادية لبناء الأمة الإسلامية الواحدة التي احتفل بها دستور مصر الجديد ودساتير عربية أخرى، والتي إن قامت بينها فواصل الأرض، فلها من وشائج الإيمان وعواطف الرَّحِم الماسَّة، ما يجعلها في الشِّدَّة والرَّخاء قلبًا واحدًا ينبض بالأخوة ورأيًا مفردًا يمضون معه إلى مواطن العِزَّة والقُوَّة، وصدق رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(١٠).

وإنما تحيا هذه الأمة الواحدة في أضواء الإسلام وتعاليم محمد -عليه الصلاة السلام- ولا غِنًى للذين ينشدون سلام العالم ورفاهيته عن وساطة الإسلام في ذلك، فهو دين السلام لا ريب، فالسلام اسم الله الذي أكمل بالإسلام دينه، وأتمَّ به على المؤمنين نعمته، ورضيه لهم شرعةً ومنهاجًا، وهو دين السلام في شعاره وتحيته، والجنة التي وعد الله المؤمنين وراء أسوار الحياة هي دار السلام:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾

(الرَّعد: ٢٣، ٢٤)

والحَجُّ في حقيقته ومغزاه هجرة إلى الله واعتراف عملي بأنه أكبر من المال والأهل والولد، وأعزّ من كرائم الحياة ولذائذها التي ندعها وراء ظهورنا راضين ونحن نستقبل التقشُّف بَاسِمِين في أداء هذه المناسك، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرةً وأصيلًا.. لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ.. لَبَّيْكَ لا شريك لك لَبَّيْكَ.. إنَّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. بهذه الوحدانية الحقَّة تجيش الضمائر وترتفع الحناجر في تلك الأماكن المقدسة التي ارتفع فيها صوت محمد وصحبه حتى صدقهم الله وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. وبهذه العقيدة الخالصة يصدر وفد الله عن مكة بعزم صادق على أن لا يدنسوا بالإثم هذه الأيدي التي وضعوها في يد الرحمن وهم يستلمون الحجر الأسود أو يشيرون إليه، أو هكذا ينبغي أن يكونوا؛ حتى يعطوا من أعمالهم ومشاعرهم صور الحج

(١٠) صحيح مسلم، عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- حديث رقم: (٢٥٨٦). (المجلة).

المبرور بعد أن نزلت عليهم السكينة من فوق عرفات، وغشيتهم الرحمات؛ وباهى بهم الحق ملائكته فقال: «يَا مَلَائِكَتِي: هَؤُلَاءِ عِبَادِي جَاءُونِي مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِينَ، أُشْهِدُكُمْ يَا مَلَائِكَتِي أَنِّي غَفَرْتُ لَهُمْ»(١١).

فَلْتَغْتَبِطْ أَنْفُسُ المحظوظين بمكة؛ وبأوَّلِ بيتٍ وضع للناس مباركًا وهدًى للعالمين، ولْتطمئنّ قلوبُهم بالأمن يفرغه الله ملءَ قلوبهم في مقام إبراهيم؛ فلا يذكرون هنالك غير الأخوة والسماحة والعفو، ولا يصدرون إلى ديارهم إلا وقد عقدوا الخناصر وأكَّدوا الأواصر على التعاون والتَّناصر في السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ حتى يأمن من التَّداعي بنيانهم وتسلم من غدر الغادرين أوطانهم؛ وتمضي الأمم العربية والإسلامية صفًّا واحدًا في كيانٍ عربيٍّ حتى لا تكون فتنة ويكون الدِّين كله لله.

وما أكثر ما يعطي حَجّ بيت الله وزيارة مسجد رسوله من معانٍ وعبر؛ وما يثمران من نافع الثمر، وجليل الأثر، فعندهما تُشْحَذُ على طاعة الله العزائم، ومن ينبوعهما يغسل الله الخطايا والمآثم، والمعصوم ﷺ يقول: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(١٢)، وهنالك تستحكم الألفة بين المسلمين بعد أن زالت من بينهم فوارق الغنى والفقر، وانْمَحَتْ فواصل اللون والجنس، وسيطر عليهم إيمانٌ ويقينٌ بأنَّ النَّاس كلّهم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتَّقوى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)

وفي حفظ الله وجميل رعايته يا جيران بيت الله وزوار مسجد رسول الله؛ في الظَّعن والإقامة؛ والعودة الرَّابحة؛ وكونوا على الدوام رعاة الحقِّ؛ وهداة الخلق، لتعلو بأيديكم وعزائمكم الراية الإسلامية، وتبقى بكم وحدة الأمة العربية.

---

(١١) مسند أحمد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص– رضي الله عنهما– حديث رقم: (٧٠٨٩)، بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِأَهْلِ عَرَفَةَ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا». وشرح السنة، للبغوي (تَ ٥١٦ هـ)، عن جابر ابن عبد الله –رضي اللهَ عنه– (بألفاظ متقاربة)، حديث رقم: (١٩٣١)، ١٥٩/٧، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، ط٢، سنة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م. (المجلة).

(١٢) مسند أحمد، عن أبي هريرة –رضي الله عنه– حديث رقم: (٧١٣٦)، بلفظ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». (المجلة).